التقرير اليومي

2007/4/15

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

أميركيون من دون أمركة: هل أن بلادنا لا شيئ أكثر من عنوان؟

بقلم جون ماك وورتر؛ هادسون؛ 2007/4/2

لن أنسى مطلقاً حديثاً لي مع إثنين من المسلمين بعمر العشرين عاماً تقريباً بعد وقت قصير من هجمات 9/11. أحدهما كان قد وُلِدَ ونشأ في الولايات المتّحدة، والآخر أتى الى هناك في عمر غض. وكان واضحاً من حديثنا، رغم أنهما تجنبا بحذر ودقة شديدَيْن الصراحة والوضوح، بأنّ أياً منهما لم يكن يختلف بالكامل مع ما قام به أسامة بن لادن. وكان هناك، بالطبع، تلاوة متكررة لعبارة: "أعتقد أنّ ما قام به كان مروّعاً"- لكنها كانت تصل إلي بطريقة تفتقر للإلتزام العاطفي. فما داخلني كان شعور بأنه كان هناك، في النهاية، شيئاً مرعباً ضرورياً بالنسبة لـ "بن لادن" لكي يوضح رسالة قيّمة. ولم أجد الأمر صعباً بأن أتخيل أنّ الشابَيْن المسلمين كانا ليكونا أكثر صراحة حول هذا الأمر مع بعضهما البعض لو لم أكن أنا حاضراً.

ويُذكر بأنّ الراحل آرثر سكيليسينجر كان قد قال بأنه لم يكن يستطيع المشي على الجادة الخامسة من دون التساؤل كيف كانت تبدو هذه الجادة، وكيف كان الناس قبل قرن من الآن. وأنا أقاسمه هذا الفضول التاريخي- ويخطر لي انّ هذا الحديث مع المسلمين كان مستبعداً جداً قبل حوالي 30 عاماً مضت. فقد كان هناك زمن عندما كان المهاجرون، إذا ما كانوا مقيمين في أميركا بشكل دائم، يقبلون طواعية ودون تردد أن يصبحوا أميركيين. فأية مشاعر يمكن أن تعبّر عن أنّ هجوم "بيرل هاربور" كان عملاً "يمكن فهمه"، كان سيحتفظ بها بشكل هادئ جداً جداً.

فهذان المسلمان، على كل حال، فكروا بأميركا كفرصة وليس كهوية. فميول وتوجهات كتوجهاتهم، في أميركا اليوم، تعتبر طبيعية بإمتياز- حتى بين الأشخاص الصريحين، كما تعلمت في محادثات مصنفة (بمجموعات) منذ 9/11. ومن بين قسم واسع من الأميركيين، هناك من لديه طابعه المحدد وعاداته المميزة جداً كأميركي، وإفتقاره للفخر بأنه كذلك(أميريكي). فالمرء إما لا يملك شعوراً واعياً بالهوية الأميركية، وإما لو تم لفت نظره لإعطاء المسألة إهتماماً أكبر فإنه يخجل من كونه أميركي.

وفي الوقت ذاته، تعتبر مسألة مدح وتمجيد أميركا أمراً ساذجاً وغريباً؛ فالمرء ينجح بالمرور بتحديده أميركا كخلاصة من "التنوع" المتنافس- ويدّعي شاهد بأنّ باراك أوباما يمثل "ما هي أميركا"- مما يعني أنّ أميركا ليست شيئاً واحداً، وبذلك فهي لا شيء في النهاية، ما عدا كونها عنوان.

في الوطن، في أميركا

إذا ما تم إرجاع أميركي ما الى زمن 1907، فإنّ شيئاً واحداً عليه التعود عليه، هو كم كانت الهوية الأميركية تُعتبر فخراً بين شعب يمثل مختلف أساليب الحياة. فمصطلح "الأميركي" كان يحمل الدفء والزهو. فالناس غالباً ما كانوا يُرجعون اللغة الإنكليزية في بلادنا كلغة "أميركية"، ولم يكونوا دائماً يمزحون. فـ H. L. Menken عنوَن عمله البحثي الرائع بعنوان "اللغة الأميركية"، وهو عنوان مستبعد بشدة لعمل مشابه له اليوم. وتم إطلاق تسمية "وردة الجمال الأميركي" في العام 1875. أما اليوم، فبإمكان المرء أن يتخيل إعطاء إسم لوردة جديدة من نوع سوري (Suri). أما الإخوة غيرشوين، فقد عنونوا إسطوانة ضاربة لهم بعنوان "الأغنية الشعبية الأميركية الحقيقية هي الراغ" بروح إحتفالية بهيجة. كما أنّ سلسلة من العروض الموسيقية الهزلية- غير ساخرة- كانت تعرض على مساروح برودواي بدءاً من أواخر العشرينات.

لقد كان هناك، على وجه التحديد، عنصر ضيق في أفق التفكير في شطيرة التفاح الوطنية هذه، وغالباً جداً ما ظُلّلت بشوفينية (وطنية مفرطة) طائشة على نموذج جورج م. كوهان. ورغم ذلك، وبعد قرن من الآن، فإنّ ما سيظهر طائشاً بشكل كافٍ هو الشعور المضاد للشعور القوي الموجود الآن بصفته إشارة تنوير: إزدراء كبير للتجربة الأميركية.

وما هذا الإزدراء إلا أنه أكثر صراحة من نخبة مفكرينا في هذا المجتمع. فالعلوم الإجتماعية والإنسانيات تقدس مسألة درس علاقات القوة (أو الظلم والجور،حتى نكن أكثر تحديداً)، بشكل مفرط. إنّ الإستطلاعات اللانهائية بشأن "إخضاع التابعين" وإحتمالات التنافس والإنتهاكات (للقانون) هي إختصار واضح وصريح جداً للفضول الإنساني. ومع ذلك، تكرس جموع الباحثين الغفيرة وظائف لهذا الفهم الضيق من الثقافة والمعرفة، خارج الإلتزام الاساسي بشأن كشف أولئك الذين يمتلكون قوة فعالة (في موقف أو نظام) بصفتهم مخادعين ومحتالين. فليس هناك مجال كبير للحب لبلد لديه وجهة النظر هذه للعالم.

ومن الواضح بأن هذه أخبار قديمة بالنسبة للمفكرين والمثقفين كي يكونوا ناقدين (بإستمرار). وفي "الحضارة في الولايات المتّحدة"، من مجموعة المختارات الأدبية للعام 1922، إنتقد المحررهارولد ستيرنز بشدة "الجوع العاطفي والجمالي"، "جنون التنظيم التافه"، و "قيادة وتنظيم (بشكل صارم) وتدريب المجتمع". إنها جرعة قوية، لكن هؤلاء الباحثين كانوا معارضين بمعظمهم لكيفية إعاقة الجوانب الأقل أهمية للطبيعة البشرية عن إتقان الأعمال في بلد يمكنه القيام بما هو أفضل.

فالمرء يبحث في هذا الكتاب عن نوع من الحبكة العميقة، دون جدوى، فالإزدراء اللامبال بشكل تام لكل ما لا يزال يحتفظ به الأميركيون (من مواقف وسلوكيات) هو الآن عملة مشتركة في المجتمع الأكاديمي. وعلى سبيل المثال، إنّ ملاحظة تم تقديرها حول حلقة (بحث) معينة هي: "أميركا أسست على العنصرية منذ بدايتها الأولى"، تحصل (دون وجه حق) على مديح وترحيب شديد من قبل أعضاء الجمهور البيض وكذلك السود. وهناك بعض الحقيقة بالنسبة لهذا على وجه التأكيد- لكن ليس بإمكاننا تغييرها، فالتهمة تتضمن بأنه كان من الأفضل لو أنه لم يتم تأسيس جيمس تاون وبلايموث أبداً، وظل الأفارقة بقراهم. من الواضح أنّ الحس الوطني لا يُطبق هنا.

وبالتأكيد، فإنّ المرء لن يتوقع أن يقوم باحثون بتخصيص مهنهم لمجرد المديح والتمجيد. لكن المرء قد يتصورهم يقومون بتشكيل وقولبة علامة مميزة للوطنية مختلفة إختلافاً ضئيلاً في المعنى لكنها قوية، محفزين أميركا على ضعفها مع الإفتخار بما نقوم به بشكل صحيح. أما النموذج، فقد يكونوا المفكرين والمثقفين النموذجيين في فرنسا. وبدلاً من ذلك، فقد تم تلقيننا بأنّ التوجه المتنور لوطننا القومي الأصلي كان يجب أن يكون أكثر شبهاً بذلك الذي يحكم ألمانيا، المحرجة بعمق للغاية من الهولوكست، بحيث يرتد الإلمان ويجفلون عند أي مشهد متعجرف لوطنهم. ولذلك، فإنّ الروح المتنورة يجب أن تزدري مفاهيم (خاطئة) كهذه، بما أنّ السياسة الأميركية عنوانها الأمن الوطني.

إنّ الطبيعة كتابات الأكاديميين اليساريين الحديثين القصوى تعرض الى أنّ الإرتباط التجريبي مع الواقع لي القوة المسيرة في إيديولوجية كهذه. فعلى سبيل المثال، إنّ معظم هذا العمل، الذي في حين قُدم كدفاع عن المضطهدين والمسحوقين ومؤازرتهم، فإنه يكشف عن إفتقاره للإلتزام الحقيقي بالتغيير، المثير للفضول. إنّ الفرضية الضمنية هي أنّ لا شيء بإمكانه جعل أميركا مشروعاً قيماً قاصراً عن التحول المزلزل في طرق الأداء والإجراءات العملانية وفي سيكولوجيات الشعب الأساسية . ليس من شخص منطقي وعقلاني يمكن أن يكون لديه أي أمل بأنّ هذا يمكن أن يحصل فعلياً، وهذا يمكن أن يعني فقط بأنّ الناس الذين يفكرون بهذه الطريقة يحافظون على آرائهم لأسباب غير تلك العملانية.

إنّ تلك الأسباب هي أسباب عاطفية أكثر منها سياسية- الرغبة بإرتداء ثوب العزلة وإقصاء النفس عن المؤسسة(الدولة) كعلامة مميزةعلى التبصر والحنكة. إنها تعيد التأكيد على أنّ هؤلاء المتجردين هم أشخاص جيدون، جيدون بطريقة غير

متوفرة لدى أولئك الأقل تعلماً ووعياً. إنّ هذه الملاحظة الساخرة هي تمرين رياضي شبيه بالجمباز: فهي تفيد حاملها بدلاً من الناس الذي يدعي أنه مهتم بشأنه. إنه شيء أطلقت عليه، في مكان آخر، مصطلح "العزلة العلاجية".

وعلى كل حال، فإنّ "العزلة العلاجية" ليست محصورة بالبرج العاجي. فبما يتجاوز الحرم الجامعي، فإنّ الصراحة والوضوح والإزدراء اللاذع للمؤسسة(الدولة) له مذاق ضعيف ومشوه. إلا أنّ العزلة العلاجية وجذور هذا الإزدراء منتشرة الآن ولها، بشكل مساوٍ، نتائج وخيمة لجهة الفخر بالهوية الأميركية. إنّ العزلة الوجودية والمشاعر المناوئة لهدف ومنفعة شخصية لها أسلوبها بثني الناس عن تحية العلم الأميريكي.

الغضب وفقدان الصبر في مواجهة "الرجل"

في العام 1964، ذُكِرَ بأنّ 76% من الأميركيين يثقون بالحكومة؛ وبحلول عام 2000- قبل وقت طويل من حرب العراق- فإنّ 44% منهم، أي أقل بقليل من النصف، ذكروا بأنهم كذلك. إنّ كذب وإحتيال إدارتَيْ جونسون ونيكسون بشأن حرب فييتنام ويقظة البلاد للمعاملة الظالمة والجائرة للسود أطلق شرارة هذا التغيير، لكن ذلك كان قبل وقت طويل وعادت العزلة لتسيطر حتى على أشخاص يافعين جداً ليكونوا قادرين على إستذكار تلك الحقبة. فالعزل كان قد تفشى دون أن يتم ضبطه، مع أنّ السود كانوا قد أصبحوا، وبشكل ثابت، أكثر مركزية في أعلى مجالات حقول الحياة الأميركية. فحتى تحت إدارة كلينتون، لم يدرس أولئك الليبراليون كذب وخطأ، بكل ما للكلمة من معنى، تلك السياسة. ولم يعد هذا رداً وإنما إشارة عن موقف ذاتي. وبواسطة محفز خارجي، تمت تسوية هذا الوضع الإنعزالي بحيث يتقبله الفرد طوعاً وكأنما ولد له ويتنشقه كنموذج طبيعي، بسبب مظهره المهنئ للذات.

أما المثال، فهو الإحباط الناحب المتميز بالمعارضة (أو العداوة) للمبادئ التقليدية النموذجية والمحتوي على رمز الموسيقى الصاخبة، والمتقبّلة حتى من قِبَل أصحاب العادات اللطيفة والأخلاق الدمثة بصفتها "ممتازة". ويشبهها بذلك أسلوب "الغانغستا" (العصابات) لموسيقى الهيب-هوب، المليئة بكلمات التنديد بالشرطة والممجدة للسود بصفتهم "زنوجاً" مرتبطين بمعركة داخلية ضد جمعية الكوكلكس الأميركية العنصرية، وهي الآن مادة حياة لحشد غفير من السود تحت سن الـ 50 عاماً، مدعومين بـ 70% من المشترين البيض. إنّ أميركا الحديثة، التي لم تعرف مطلقاً زمناً لم تكن فيه موسيقى كهذه مثالاً نموذجياً، يفترض بأنها، في الحالة الأولى، إنعكاساً طبيعياً للتمرد الملازم للشباب، وفي الحالة الثانية، ردة الفعل الحتمية للسود الذين عانوا من إساءات التمييز العنصري. ومع ذلك، فإنّ مهاجري الأوكي الجائعين (إستُخدمت كلفظة للحط من قدر العمال الزراعيون المهاجرون خاصة من أوكلاهوما في فترة الثلاثينات) لم يعرفوا موسيقى كهذه، كما لم يعرفها المزارعون المستأجرون السود الذين كانوا يراقبون عمليات الإعدام شنقاً من دون إتخاذ الإجراءات القانونية، وذلك سنة بعد سنة. كلا، إنّ موسيقى كهذه هي نتاج تشنج بالمواقف مختص بزمننا.

إنّ "العزلة العلاجية" ترسل تموجات الى كل جزء من الثقافة. فالكوميدي الراحل سام كينيسون كان قد أنشأ سلوكاً في الثمانينات حول تقديم المتعة والبهجة للحضور بخطب لاذعة متوجة بصرخة مدوية حول "الرجل". أما دمية باربي، فتكافح الآن لتنجو بحياتها مقابل دمى براتز، المغلفة بشكل إستفزازي بطبقة معدنية مع تعابير وجه وإبتسامة متكلفة مشيرة الى أنها غريبة عن الجنس. هذه عزلة وتناقضية بصفتهما يشكلان أداءً وولعاً غير منطقي ونمطاً بالتفكير يؤثر على تصرف الشخص وأفكاره.

إنّ العزلة، كما الأداء على وجه التحديد، بدآ للمرة الأولى بطفل "ذكر حكيم" قديم والذي كان لديه نوبات غضب. لكن تحت ظروف عادية للمجتمع البشري، فإنّ هذا السلوك، في حين أنه أكثر نموذجية عند بعض الأفراد من آخرين، لا يشكل شيئاً من روح العصر). فهذا السلوك عومِلَ بلين وتسامح عاطفي، بحيث أنّ الظروف الطارئة للحياة الواقعية يجب أن تبقى تحت السيطرة. فالمجتمعات التي تعيش على الأرض، التي هي دوماً في خوف ما إذا كانت الحرب ستتركهم يتعرضون لخطر الجوع، لا تعرف العزلة نوعاً من الرياضة.

وعلى كل حال، فإنّ أميركا الحديثة مجتمع غني بحيث أن القلة فيه يعانون من الجوع وحيث لم يكن هناك من حرب على أرضنا في خلال 150 عاماً مضت (كما أنه لن يكون هناك واحدة بحيث يكون فيها كل الرجال القادرين جسدياً مطلوبين للمشاركة فيها في غضون 40 عاماً). وتحت هذه الظروف، فإنّ نوبة الغضب لم تعد تشكل تهديداً للصمود. وليست مصادفة أنّ أميركا شاهدت عرضاً من نفس النوع في فترة العشرينات المزدهرة، عندما شرعت "سمارت ست" مع نسخاتها من "أميريكان ميركوري" الساخرة بولع، ومحررها Mencken، بتكريس نفسها بشكل أكبر للصوت الخطابي (الجهوري) لمهاجمة وإنتقاد القوى الموجودة في السلطة بدلاً من تشكيل وإبتداع بديل سياسي متجانس.

الأقلية المعزولة

إنّ هيمنة العزلة العلاجية عملت أيضاً على قلب توجه الأسود الأميركي لأن يصبح أميركياً. إنّ المسافر عبر الزمن الى العام 1907 يمكن أن يجد عجباً كيف أنّ الناس السود كانوا يناضلون بشكل صريح وعلني بإتجاه أن يصبحوا "أميركيين". ففي ثانوية دونبار، وكلها من السود، في واشنطن، كان الطلاب يتعلمون اللاتينية. كما أنّ W. E. B. Du Bois قام بتعليم اليونانية، وأولئك الذين كانوا يقدرون ميله الماركسي في وقت لاحق من حياته غالباً ما كانوا غافلين عن أنه كان يمكن أن يكون متناقضاً مع ماركس في ألمانيا.

وفي عملهما الموسيقي الضارب "شافل آلونغ" عام 1921، قام أوبي بلايك ونوبل سيسل بتضمينها موسيقى لأغنية شعبية مع كلمات صريحة من الأوبريت الشعبية في ذلك الحين: "الحب سيجد طريقاً/ رغم أنّ السماء رمادية الآن/ حب كحبنا لا يمكن إستثناؤه مطلقاً/ فسهام كيوبيد ليست مدربة على ذلك الطريق". وصورة لإمرأة سوداء تحتج بشدة على عملية إعدام شنقاً امام البيت الأبيض في الثلاثينات تتضمن إعلاناً يقول "نساء كنتاكي يطالبنَ بالعدالة لكل المواطنين الأميركيين"- وهو ما يتعارض مع الرؤية الأكثر إحتمالاً لزمننا والتي تطالب بالعدالة "للشعب الأسود".

ومنذ الستينات، يعتبر الأميركيون السود مهتمون أكثر فأكثر بالمحافظة على "الهوية السوداء"- مصطلح غير معروف بالنسبة لحقبة Du Bois الفيكتورية- بدلاً من "الأميركية". وقد يدّعي كثيرون بأنّ هذا الأمر إنما هو بسبب أنه بسبب كونك شخصاً أسود تعيش في أميركا فهذا يعني أنك تختبر هجوماً مستمراً من النشاطات والأعمال العنصرية. لكن النضال لأجل الأمركة كان أمراً نموذجياً بين عدد كبير جداً من السود في حقبة عنصرية صريحة الى درجة أننا في منتهى السعادة كوننا تجاوزناها وأصبحت من الماضي، عندما كان السود الناجحون نادرين، وكما وصف الأمر ذات مرة ريتشارد رايت: "أسماك منفردة تتقافز وتنطلق بسرعة جزء من الثانية على سطح البحر"، "الإستثناءات العابرة لتلك المدرسة التراجيدية الواسعة التي تسبح في الأعماق".

وبالطبع، فإنّ بعض المسافرين عبر الزمن من السود وزملائهم البيض يصرون على أنه لم يتغير سوى القليل منذ أن كتب رايت ذلك؛ إنهم يتجاهلون عن قصد الحقيقة بأنّ اليوم يوجد سود من الطبقة الوسطى أكثر من الفقراء. كما أنّ الإيديولوجية تتغلب على التجريبية في الإصرار بأنّ:

أ) التمويل المتدني لمدارس السود تبقي درجات وعلامات السود متدنية (عندما يعتقد الطلاب السود بأنهم يقومون بعمل جيد في المدرسة كون ذلك سمة "بيضاء").

ب) أنّه يجب أن يكون سبب تواجد الرجال السود المبالغ فيه بين نزلاء السجن هو"االتركيبة الصناعية المعقدة للسجن" (عندما يلتزم الرجال السود أيضاً بجرائم عنف وذلك في تفاوت كبير مع نسبتهم المئوية من تعداد السكان).

إنّ الإصرار العنيد والمتصلب حول تأريخ ووصف "التمييز العنصري"- في حين أنّ المشكلة الأكبر اليوم هي ثقافية بشكل واضح للغاية، والتي ليست بسبب العنصرية- تعتبر منطقية فقط كونها دلالة أخرى على العزلة العلاجية. ومرة أخرى، لقد مهدت، وبشكل مثير للسخرية، الفرص المحسنة الطريق لمظالم وشكاوى لمرحلة معقدة. وفي حين كانت العوائق أمام تقدم السود صلبة وخالية من الشفقة والرحمة، فإنه لم يكن هناك مجال لأوضاع ظلم حقيقي وشامل أيضاً. ويمكن الآن فقط، لأنشطة تقليدية مألوفة كهذه أن تتقدم، مما يعطي بعض السرور العابر للشعب. أما النتيجة، فهي أنه في وسط التسلية عما يجب أن تكون عليه الهوية السوداء، فإنّ أفريقيا تلعب جزءاً كبيراً بكونها "أميركية"، وهو ما يُعتبر لصالح النقطة التي أعرضها- على الرغم أنّ أميركا هي أرض الوطن الوحيد الذي عرفه الأميركيون السود على مدى قرون، أو سيعرفونه.

جذور الكارثة

هناك بالتأكيد أشخاص في الولايات المتّحدة لديهم وعي ذاتي وشعور إيجابي بشأن هويتهم كأميركيين، وهم على الأرجح من الجيش أكثر من المدنيين، ومن المحافظين أكثر من الليبراليين، ومن الطبقة العاملة أكثر من الطبقة الوسطى. إنهم في وضع دفاعي، يتم تجاهلهم بإنتظام بصفتهم ممتلئين بالعاطفة والأحاسيس ولا يدرون بما يجري.

هل يمكن أن يصبح في الولايات المتّحدة شعوراً منتشراً بالفخر والعزة في ثقافة واحدة، كما كان نموذج اليونان، الصين، تايلاند، ومعظم الدول الأخرى في تاريخ البشرية؟ ليس بإمكاني أن أفكر بشيء يمكن أن يخلق أميركا كهذه غير هجوم عنيف مدعوم على بلادنا. فظاهرياً، إنّ الهجوم الوحيد الذي حصل ترك القوة الدافعة المعارضة سليمة ومعافاة. فالمفكرون اليساريون مثل نعوم شومسكي وسوزان سونتاج، كانوا يقولبون هجمات 9/11 على أنها بمثابة عقوبة عادلة لنا بسبب إمبرياليتنا، في حين كانت منطقة الأرض الصفر (Ground Zero) لا تزال متوهجة من آذار الدمار.

أما مقالة تشومسكي حول القضية، فقد تهافت الطلب عليها. فالناس أصحاب الفكر الجيد تم تلقينهم بأن يُظهروا القاعدة على أنها تقاتل لأجل الحرية وتغرز إصبعها في عيوننا بسبب دعم حكومتنا لإسرائيل. أما الآن، فإذا ما حصل وعانينا من سلسلة تفجيرات وحشية لمدن أميركية عدة، بحيث يصبح ذلك تجربة أميركية نموذجية لجهة فقدان نسيب أو صديق في مذبحة مصنوعة من قِبَل عرب أصوليين يهاجمون أميركا بصفتها الشيطان الأكبر، فإننا سنعود فجأة الى الأيام القديمة. واقع تراجيدي صلب خالٍ من الرحمة والشفقة- جثث مشوهة، حضور جنائز كشعيرة شهرية- قد يجعل فن مسرح iPod يبدو قليل الأهمية وعادي فوراً. إنّ الضرورة الملحة للدفاع عن الحياة، الحياة الأميركية، التي نعرفها ضد البرابرة القتلة يوقظنا على قيمة أميركا وعلى عيوبها المعترف بها وعلى ما حققته وأنجزته.

إني أشعر بالأسف للقول بأن التقصير عن أن نكون أميريكيين سوف يستمر، أما بالنسبة لمعظم الناس الذين يزعجون أنفسهم بالتفكير بذلك، فهو ما قد يصطلح المرء على تسميته بموقف يتعلق بممارسة الأساليب التقليدية الكلاسيكية (أو العصرية المتطرفة): تنشئة شعور بالشرعية الشخصية ضد إزدواجية مُرّة وعنيدة تجاه أرض ليس للمرء نية بالرحيل عنها.